قوة السر التي تنبت نخلا وسنابل
تنبت الشعب المقـاتل

ان غدوى طوقان ابنة نكبتين ، ولكن شتان ما بين فعل الاولى بها واثر الثانية فنكبة عام ١٩٤٨ فجرت فيها ينابيع الحزن السديمي ، فشغلت بذاتها عن قضيتها المصيرية ، فهومت على هذه الذات تنزح منها الرغاب والتصورات والخيالات الشاحبة المتعبة ، واما نكسة عام ١٩٦٧ فقد فعلت بها فعلها العجيب : قلبتها رأسا على عقب من شاعرة لا هم لها الا نفسها وما يدور في هذه النفس من الانفعالات والذكريات والهواجس الى شاعرة تحكي عن كل شيء يخدم قضية الخلاص من الاحتلال الصهيوني الشرس لوطنها، فترسم بالفاظها الريا بالعاطفة النبيلة صور البطولة والكفاح اليومي من أجل الحرية، وتنسى في زحمة هذه العملية الجادة ذاتها بل تخنق ما يضطرب فيها مـن انتفاضات داخلية خاصة وبهذا تتيح لصوتها الشعري ان يزداد أصالة وابداعا .

ولم تقف غدوى طوقان عند حدود تجربتها الفنية كواحدة من رائدات الشعر الحديث، بل تطورت تطورا واضحا في قصائدها الاخيرة التي ضمها ديوانها الجديد « على قمة الدنيا وحيدا — من منشورات الاداب » فأصبحت من ناحية البناء المعماري لقصيدتها تعتمد على الشكل الدرامي وما يتيحه من أجواء متنامية تفسح مجالا طلقا لرسم الموقف الشعري ، وعلى المقاطع الموسيقية الطويلة المتتابعة بنفس حار متلاحق بدل الشطرة المحدودة التفعيلات المغلقة الايقاع ، مما أتاح لشاعريتها ان تلحق بركب التجديد الدائم .. نلحظ هذا في قصيدتها « مع الحزن المعتق » التي اهدتها الى زميلها الشاعر « سميح القاسم » وفيها تقول :

وعند انهيارات جسر التواصل ، حاولت
حاولت ، حاولت ، لكي
ولم يبق مني على راحتيك سوى غيمه
تجمد فيها الشرار
وغاب حضوري ، رحلت بعيدا وغصت
بعيدا الى القاع ، غصت انادم حزني
اعاقره في غيابة جب بغير قرار

ورغبة من الشاعرة في سريلة قصيدتها بوشاح من التجديد الشكلي ، واغنائها بمظهر جذاب ، عمدت الى استعارة بعض وسائل الفن القصصي ، واستعملتها في عدد من قصائد هذه المجموعة على الشكل التالي :

١ — استعمال الحوار الحركي : حيث جعلت الشاعرة الحوار عصب القصيـدة ومرتكزها الاساسي ومحورها الذي تتنامى من خلاله واثرته بفيض من التدفق والحرارة فأصبح يموج بالحيوية والاشارات الخفية احيانا ، ووخز الدبابيس والايجاع أحيانا اخرى ، والنعومة الشاعرية والترقرق الوجداني احيانا ثالثة :

— لعلك مثلي غريبة
وتنفصل القطرتان عن المد ثم تغيبان
بين زوايا حديقه
— تحبين اوزبورن ؟
— ومن لا يحبه ؟
— عجائز انكلترا المحيطون وضباطها
الآفلون مع الشمس « غرب السويس »